المحاضرة الثالثة في مقرر "النظم التربوية" لطلبة السنة الثانية/ إرشاد نفسي

<u>الطلبة الأعزاء..</u>

أعود وأذكر أن كل ما سيرد في هذا الفصل مطلوب بالكامل وأنني لستُ مسؤولة عن الإشارات والتحديدات الواردة ضمنه

د. ســـلاف نعيـــم

الفصل الثالث
التربية العربية الإسلامية ونظمها التعليمية في العصور الوسطى

تمهيد :

يعد النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، مرحلة تحول مهمة في تاريخ العرب . فمع هجرة الرسول العربي محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة المنورة عام ٦٢٢ م ،تشكلت النواة الأولى للدولة العربية الإسلامية . وتبلورت هذه النواة بعد فتح مكة عام ٦٣٠ م واستمرت الدولة العربية حتى سقوط بغداد على يد المغول عام ١٢٥٨ م.ومع بداية حكم بني أمية (٦٦١ – ٧٥٠) ، تحولت السلطة في الدولة العربية الإسلامية من (حكم المؤسسات دمقراطي إلى حد ما) إلى حكم (أتو قراطي) ملكي استبدادي .وبذلك تعرضت النظرية السياسية الإسلامية الأساسية في الحكم إلى الانتكاس (وما تزال كذلك إلى يومنا هذا) . وكانت تهدف هذه النظرية في الأساس ، إلى أن تربي الناس على فهم جديد ل (السلطة السياسية – الخلافة)،التي تلغي الانتماءات العشائرية أو العائلية أو الطبقية ، وتبعدها عن روح التسلط في الدولة الإسلامية ، وإقامة السلطة السياسية ، التي تأخذ بالحسبان ، آراء ومصالح الطبقات الاجتماعية الإسلامية . يقوم مبدأ النظرية السياسية الإسلامية جميعها ،على إبرام اتفاق بين الأمة ومن تختاره لإدارة شؤونها المختلفة وهذه المعاهدة تقوم على التفاوض و المشارطة والمشاركة (وأمرهم شورى بينهم) .

واستمر الحكم الملكي الوراثي في عهد بني العباس (٧٥٠-١٢٥٨) .إذ سرعان ما تخلص العباسيون من الجناح الثوري اليساري الإسلامي، الذي أوصلهم إلى الحكم ،وساهم معهم في القضاء على حكم الأمويين .

إن دراسة التاريخ السياسي العربي الإسلامي ، تنبئنا بأن مرحلة تشكل الدولة العربية الإسلامية قد مرّت بمراحل مختلفة من التغير ، وكانت السلطة السياسية انعكاساً غير حقيقي عن المستوى الحضاري والثقافي والعلمي الذي وصل إليه العرب في عصرهم الوسيط . ففي الوقت الذي كانت فيه الحكومات الإسلامية تنهض وتسقط ، والأسر الحاكمة تظهر وتختفي ، كانت حركة التطور الفكري تسير بوتائر ثابتة في اتجاهاتها . وكانت قوى التبدل الاجتماعي تفعل فعلها ، سلباً وإيجاباً ، لإعادة تشكيل القواعد الاقتصادية والأخلاقية والعلمية والفكرية والتربوية للمجتمع عبر المراحل التاريخية المختلفة للحضارة العربية الإسلامية (٤٣ ،ص٧) .

أهداف التربية الإسلامية :

لم تقتصر التربية الإسلامية على جانب محدّد في تربية الإنسان ، بل شملت جوانب حياته جميعها ،الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية ،والمادية والفكرية والروحية . وعملت بكل السبل المتاحة لتحديد سمات شخصية المسلم ، وفق قوانين سلوكية ،تربوية ،تعلمية محددة.

ويمكننا أن نقسم أهداف التربية الإسلامية إلى قسمين رئيسين :

القسم الأول : يتناول الأهداف المادية الدنيوية . والقسم الثاني : يتناول الأهداف الروحية.

أهداف التربية الإسلامية المادية :

يشكل الجسم الإنساني ، موضوعاً مهماً بالنسبة إلى الإسلام . فقد أكد القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، هذا الجانب في محاولة لبنائه صحيحاً متناسقاً .

احتلت التربية الجسمية مكانة بارزة عند العرب ، لما كانت عليه حياتهم من شظف العيش والإقامة في بيئة مملوءة بالمخاطر ، تسود فيها علاقات الخوف ، وشريعة الغاب ، حيث كانت السيادة دائماً للأقوى . من هنا نرى اهتمام العرب بالفروسية والمبارزة والعدو والمصارعة ، اهتماماً كبيراً .واستمرت هذه التربية إلى الإسلام ، الذي شدّد بدوره على اتباعها وتنظيمها تنظيماً علمياً ، يهدف بادئ ذي بدء ، إلى تكوين مقاتلين أشداء ، أملاً في تقوية الإسلام ، بغية نشره في أرجاء المعمورة . لذلك قال الله في كتابه العزيز ((وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)). وأكدت الأحاديث النبوية، على ضرورة تعلم الرمي والسباحة وركوب الخيل. فقد روى ابن عمر عن رسول الله قال : قال الرسول محمد عليه الصلاة والسلام : ((علموا أبناءكم السباحة والرمي ، والمرأة المغزل)) وقال أيضاً ((حق الولد على الوالد أن يعلمه السباحة والرمي والكتابة وأن يورثه طيباً)) .

كذلك أكد الإسلام على النظافة ، لما للنظافة من أثر مباشر في الحفاظ على صحة الجسم . والقول المأثور ((النظافة من الإيمان)) ، يدل على أهمية الوضوء كفرض أساسي لإقامة الصلاة .

ومن أهم النقاط الأساسية التي أكدت عليها التربية الإسلامية ، في مجال التربية الجسدية ما يلي :

آ-إكساب الفرد مهارات وقدرات بدنية ، تساعده في حياته وتكون نافعة له ولمجتمعه.

ب-المحافظة على صحة الإنسان وسلامته ، وصيانته من الأمراض .

ج-تكامل العلاقة بين الجسد والروح .

أهداف التربية الإسلامية الروحية :

لقد استطاع الإسلام أن يسمو بالإنسان ، من العالم المادي الفاني ، إلى عالم المثل العليا ، وذلك عن طريق تربية حكيمة لأحاسيسه ونفسيته ومشاعره . بعيداً عن عالم الميتافيزيك ، حيث استطاع الإسلام أن يصوغ نفس الإنسان العربي ، وأن يبلورها ويهذبها بشكل رائع ، عن طريق الترغيب تارة ، وعن طريق الترهيب ، تارة أخرى .

لقد استطاع الإسلام ، أن يفتح أمام العقل البشري مسافات واسعة ،كانت إلى وقت قريب ضيقة جداً ، ومظلمة في كثير من الأحيان . فقد انتقل به من عبادة الأوثان والأصنام، إلى عبادة الاله الواحد ، رب السماوات والأرض . هذه النقلة النوعية ، في عقلية الإنسان ، ليست بالأمر البسيط . فخلال فترة زمنية قياسية ، استطاع الإسلام ، أن ينقل تفكير الإنسان ، من المحسوس إلى المجرد ، وأن يسمو بفكره سمواً كبيراً .

إن التربية الإسلامية ، تربية هادفة تهدف إلى غرس القيم النبيلة في نفس الإنسان « كلكم لآدم وآدم من تراب » . هذه النزعة الإنسانية الخلاقة ، التي استطاع الإسلام ،أن يكرسها في نفس أتباعه ،عبر أجيال متلاحقة .

النظام التربوي الإسلامي ومؤسساته التعليمية :

يقسم النظام التربوي الإسلامي من حيث المبدأ إلى ثلاثة مراحل رئيسة هي :

أولاً : مرحلة الحضانة:

وتبدأ هذه المرحلة منذ الولادة وحتى الخامسة أو السادسة من العمر ، يتلقى فيها الطفل مجموعة من الإرشادات التربوية ضمن الأسرة ، تتضمن قواعد النظافة ، واحترام الكبار وتفهم الجنس،والأدوار المرتقبة منه مستقبلاً وسماع الحكايات الموظفة ،

بشكل أخلاقي وقيمي . وغالباً ما تكون هذه التربية عفوية وغير مقصودة ، وأحياناً يوكل أمرها إلى المربيات أو الحاضنات من الإماء.

ثانياً :مرحلة التعليم الأولي:

وتبدأ الدراسة في هذه المرحلة من سن الخامسة أو السادسة من العمر . وغالباً ما كانت تتم في الكتاتيب ، أو في مدارس الصبيان بالنسبة لأبناء الطبقة العامة ، ويشرف عليها المعلم ، وفي القصور بالنسبة إلى أبناء الطبقة العليا ، ويشرف عليها معلم يدعى (المؤدب). وفي الكتاتيب يتعلم الصغار قواعد القراءة والكتابة والحساب والنحو وأحكام القرآن وأحكام التجويد والخط والأحاديث النبوية .وهذا النوع من التعليم ، عادةً ما كان مأجوراً . فيقوم أولياء الأمور بدفع أجرة أسبوعية أو شهرية أو سنوية للمعلم .

وقد كانت هذه الكتاتيب منتشرة في جميع أنحاء الدولة الإسلامية ، وبخاصة في بلاد الشام ومصر والأندلس . ويقوم مبدأ التدريس في هذه المرحلة حسب رأي الرحالة ابن جبير (١١٤٥-١٢١٧)على التلقين والتكرار، وطريقة التعليم في الكتاب : هي أن يقرأ المعلم آية من القرآن ثم يرددها الطفل حتى يحفظها ، فينتقل إلى آية أخرى . أو يكتب الآيات المطلوبة على لوح من الحجر أو الجلد أو العظام .. ثم يحفظها ، فإذا حفظها محاها . وقد يستعين معلم الكتاب بالصبيان الكبار في تعليم المبتدئين وضبطهم فإذا أتم الطفل مدة الدراسة في الكتّاب وحفظ القرآن أو رواه امتحنه المعلم ، فإذا احتاز الامتحان بنجاح ، احتفل به بشكل مهيب فيما يسمى بـ (الختمة الشريفة) .

غير أن هناك اختلافاً بين أهل المشرق وأهل المغرب في كيفية تعليم القرآن،فقد ذهب نفر من أهل المشرق وقالوا : إنه لا يصح أن يبدأ الولد بتعلم القرآن قبل معرفة العدة والآلات التي تعينه على فهمه وإدراك معانيه ، كأن يبدأ أولاً بتعلم اللغة العربية

والشعر والنثر .. فإذا أتقن ذلك كله ، طلب إليه أن يقرأ القرآن ، حتى إذا ما قرأه استطاع أن يعيه ويفهمه.

والنوع الثاني من أنواع التعليم الأولي ، ذلك النوع الذي كان يقدم للأطفال في القصور. وهو تعليم يشرف عليه الأب وأحياناً يضع له مناهجه ليكون ملائماً لأبنه أو أبنائه . والمعلم هنا يسمى (المؤدب) . وكثيراً ما خصص له جناح في القصر يعيش فيه ليكون إشرافه على الأمير أو الأمراء مباشراً . ومن ميزات هذا التعليم أن المتعلم يظل يتلقى العلم حتى يجاوز مرحلة الصبي وينتقل من مستوى تلميذ الكتاب إلى مستوى الطالب في حلقات المساجد أو المدارس . ومن أهم مقررات هذا التعليم : القرآن الكريم – الأشعار – أخبار العرب – التاريخ – السنن والقوانين ، وأحياناً الطب والهندسة وركوب الخيل ولعب الشطرنج وعزف القيثارة ، بالإضافة إلى العلوم الدينية واللغوية .

ثالثاً: مرحلة التعليم العالي : اتقنوا الأسماء والمصطلحات

يتميز التعليم العالي الإسلامي بنواحي عدة ، أهمها إنه لم يكن منتظماً بالمعنى الدقيق للكلمة ، فقد ترك الحرية كاملةً للعلماء والتلاميذ ، ونما بالاستناد إلى التقاليد العربية من جهة وإلى الجوانب التي تم اختيارها تدريجياً من ثقافات الشعوب التي دخلت الإسلام . وبالرغم من أن القواعد والشروط كانت مختلفة من مكان إلى آخر ، إلا أن تشكل الصفوف الدراسية والطرائق التعليمية كانت متماثلة إلى حدّ بعيد في أنحاء العالم الإسلامي جميعها (٤ ،ص ٢٩) .

ومن أهم مؤسسات التعليم العالي نذكر :

١–المساجد : وهي من المؤسسات الرئيسة للتعليم العالي في الموضوعات الدينية

واللغوية والفقهية التخصصية ، وقد أدى نشوء العلوم المختلفة وتطورها وازدياد عدد طلبة العلم إلى اتساع دورها وانتظام التعليم فيها، بصورة لم تكن معروفة من قبل . وكان الفقه والقرآن والحديث يشكلان معاً المواد الرئيسة للتعلم في المسجد .

أما الطلاب ، فكانوا أناساً من الطبقات جميعها ، فكل مسلم كان يستطيع الدخول إلى المسجد والاستماع إلى الدروس . وفي معظم المساجد، كانت هناك أوقاف للمعلمين توفر لهم أجوراً منتظمة ، كما كان الحاكم ، أو أية شخصية كبيرة تستطيع أن تقدم للعالم ما يكفيه للانصراف كلياً للتعليم في المسجد . ومن أشهر المساجد في العالم الإسلامي نذكر : المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة -مسجد عمرو في القاهرة – ومسجد الكوفة – مسجد البصرة – المسجد الأموي في دمشق – وجامع الزيتونة في تونس – وجامع قرطبة في الأندلس - والجامع الكبير في صنعاء – والجامع الأزهر في القاهرة ، الذي بناه الفاطميون ، وكان يدرس فيه العلوم العقلية والنقلية والفقهية والفلسفة والمنطق والطب والرياضيات .ويعدّ المسجد مركزاً دينياً وثقافياً وتربوياً يودي هذه الأدوار بأشكال مختلفة .

٢- المكتبات :

وتقسم المكتبات إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

أ- المكتبات العامة :

وهي تكون في متناول الدارسين ، وقد تكون قد أنشئت في المساجد ثم أنشئت مكتبات ملحقة بالمدارس .

ب- المكتبات الخاصة : وهي مكتبات أنشأها العلماء والأدباء لاستعمالهم الخاص .

ج-المكتبات بين العامة والخاصة : وهي المكتبات التي أنشأها الخلفاء والملوك والوزراء ،

تقرباً للعلم ، وجعلوا ارتيادها مباحاً لطبقة خاصة من الناس . ومن أشهر المكتبات العامة : مكتبة بيت الحكمة في بغداد ، ودار الحكمة في القاهرة ،ومكتبة البصرة ، ومكتبة القيروان (٥٥ ،ص ٢٩٤- ٢٩٥) ، والمكتبة الأموية في الأندلس حيث كان يقدر عدد مخطوطاتها نحو نصف مليون مخطوط (٤٦ ،ص ١٦٦) وغيرها كثير من المكتبات التي كانت منتشرة في مختلف المدن الإسلامية .

٣- المدارس : انتشرت المدارس في معظم المدن الإسلامية ولاسيما (بغداد – دمشق – القاهرة ..) وكانت للمدارس خصائص تميزها عن المؤسسات الأخرى من حيث استقلالها الإداري والمالي ، والمناهج . فقد كانت بعض المدارس متخصصة في تدريس أنواع معينة من العلوم ، فبعضها لتدريس الفقه ، وفق أحد المذاهب الإسلامية وبعضها الآخر لتدريس الحديث فقط .غير أن هناك مدارس كانت تعد بمنزلة (جامعة) نظراً لتدريسها مختلف العلوم والتخصصات من فقه وحديث وتفسير ونحو ، كالمدرسة الظاهرية في دمشق (٣٧ ،ص ٩٣) .

* * *